محاولات في درس جبران

السُلافة

او

آخر ما كتبه جبران خليل جبران

بقلم امين خالد

السلافة لغةً خلاصة الخمرة . وقد اخترنا هذه اللفظة للكناية عن الكتاب الذي اشتمل على زبدة افكار جبران الرئيسية ، وعاطفته الاساسية ، وقد اصدره قبيل وفاته ببضعة ايام دون ان يترك مجالاً للتقولات والتأويل . عنينا به كتاب « آلهة الارض »[1]

لقد جرى جبران في هذا الكتاب على اسلوب لم يتبعه في مؤلفٍ مما تقدَّمه. وهو الاسلوب السقراطي ، اي طريقة البحث في سياق مناقشة يتكلم فيها ثلاثة من الآلهة « المولودين في الارض ، واسياد الحياة على الجبال » . ولا غرو في ذلك فالانسان في عهد الانتاج الناضج يميل الى بحث المبادئ التي كانت في عهد الصبا تصدر مع زفراته الوجدانية.

لم يطلق جبران على احدٍ من آلهته اسماً يدلّ على هدف الاله صاحب الاسم ، ولم يصف احداً منهم او يحدّده . وقد اكتفى لتمييزهم بالاعداد الترتيبية : الاوّل ، والثاني ، والثالث . واقتصر في بيان ماهيّتهم على كونهم « مولودين في الارض وارباب الحياة في اعالي هذه الارض . » ولكن غاية كل اله معروفة من مآل النظريّة التي يجعلها محور لهجته.

وفي هذا الصدد يجب ان نتساءل هل يمثّل احد الآلهة الثلاثة شخصيّة

---

١) آلهة الارض . وضعه بالانكليزية جبران خليل جبران . وعرّبه الارشمندريت اغطونيوس بشير – ٤٠ صفحة متوسطة ، المطبعة المصرية ، مصر ، ١٩٣٢ .

جبران ، وايّها هو ، ام هل سكب جبران من نفسه كؤوساً مختلفة على السنة كل من الثلاثة.

كلا ، لا يمكن للكاتب المبتكر ان يثجه في آنٍ واحد نحو النزعات المتعاكسة المتناقضة لئلا يصبح كالبناء يردّد عبارات هذا المبدأ ، وجمل تلك العقيدة ، دون ان يكون متفذياً بسرّ واحدةٍ منها . واذا صحّ شبه التفذي بالمبادئ المختلفة عند فيلسوف عالم فلا يسع الكاتب الشاعر الّا تفضيل مذهب تتغلب موافقته لميوله فيسمى حامل العلم.

ولقد رأينا انّ «الاله الثالث» من «ابناء الارض» هو الذي يزيد جبران انّ يجعله يوقه الخاصّ . وذلك لاسبابٍ عديدة نذكر منها :

١ً ان مرامي الاله الثالث تجانس — وحدها — الخطة الاجمالية التي تمشّى عليها جبران في جميع مؤلفاته السابقة ، حيث يضرب على وتر الحب البشري الخالد بين الرجل والمرأة ، مع تقديس تلك العاطفة الجنسية وتحريرها من ربقة النظام العقلي والشرع اللاانساني ، والالم الذي يحصرها ضمن نطاق الزمان والمكان ويخمد تأججها المستمرّ.

٢ً يفيض كل من الالهين الاول والثاني في جدالها بالثلثين الاولين من الكتاب من قريحةٍ جيدة ونفس تستطيب الجهاد في سبيل الدفاع عن الغاية المنشودة ، فيلقي الواحد منها صحيفةً او صحيفتين او ثلاث صحائف ، ويجاوبه الآخر بمثلها ، والاله الثالث يستمع جدالها ، ويلقي من حين لآخر نبذةً لا تتجاوز الاربعة او الخمسة الاسطر ، حاكياً شيئاً يشغل باله بكليته ، غير منتبه الى المواضيع التي تدور مناقشة زميليه حولها . واما في الثلث الاخير فتتضاءل اهمية الالهين الاوّلين وتتلاشى في استسلام الثاني ونوم الاوّل . وتتغلّب بلاغة الاله الثالث الى ان يلفظ الكلمة النهائية راوياً فوزه بالافضلية. وليس من المنطق ان يعبّر عن نزعة الكاتب غير صاحب الافضلية النهائية.

فما هو موضوع المناقشة الكبرى بين الالهة ؟ وما هو موقف كلّ منها ؟ وكيف كان الفوز بالختام نصيب الاله الثالث ؟

الموضوع ! المفاضلة بين مشارب الآلهة الثلاثة لابراز المبدأ الاكبر الذي يجب

ان يكون دستورًا لاتجاهات الحياة.

وازاء هذا الموضوع يتخذ الاله الاوّل موقف « الجبّار » الـذي يترفّع على كل ما بالوجود ، حتى على الرفعة نفسها ، فهو يتكبّر على قبول التضحية الانسانية، ويرى انها :

هي رائحة الميتونة المحترقة على لهيبها الضئيل.
وهي تملأ دقائق الهواء برفرة ،
فتزعج حواسي كما يزعجها الهواء الفاسد في الهاوية(١ .

ومن حديثه :

ان قلبي يحترق عطشًا ، بيد انني لا اريد ان اشرب دمًا ضيفًا لجنس ضعيف ،
لان الكاس ملطخة ، والعصير الذي فيها مرّ المذاق في فمي.(٢

ويتشامخ بأنفةٍ مرّة وازدراء ، محتقرًا كل شعور بالحياة :

باطلة هي اليقظة وفارغ هو النوم.
وثلاث مرات باطل وفارغ هو الحلم. (٣

ويتعالى بذاته على الالوهية المتناهية والسمو المحدود:

القبّرة تنادي القبّرة ،
ولكن النسر يحوم فوقها ،
وهي لا تتوقف لتصغي الى الانشاد.
انت تريد ان تعلق محبة الذات متكئةً بعبادة الانسان ، وراضيةً بعبودية الانسان.
ولكن محبة ذاتي لا حدّ لها ولا قياس.
فانا اريد ان اسمو على ما يموت مني في الارض ،
واتخذ لي عرشًا في السموات.
فامتطي الفضاء بذراعيّ ، واحيط بالافلاك.
واريد ان اتخذ من المجرّة قومًا ،
ومن المذنبات سهامًا ،
وباللانهاية اريد ان احكم اللانهاية. (٤

ويتخذ الاله الثاني موقف « الحكيم » . فيحاول شرح الادوار التي مرّت بها الكائنات منذ القدم حتى وجد الانسان . ويريد ان يبحث ويصيغ النظام

---

١) آلهة الارض ، ص ٦
٢) آلهة الارض ، ص ٩
٣) آلهة الارض ، ص ١٠
٤) آلهة الارض ، ص ١٧–١٨

الاجمالي الذي يرتب لكلّ درجةً في اوج العمران ومصير الخليقة . واساس فلسفة هذا الاله الثاني يتفق مع مرامي المستبدّين العادلين . قال :

انني لست مغرورًا بهذا المقدار لاثق ان لا اكون .
فانا لا اقدر ان اختار الا اصعب الطرق . . .
لاخلص الانسان من الظلمة السريّة ،
ولكني احفظ لجذوره حنينها الى الارض ،
لاغرس فيه العطش للحياة ، واجعل الموت حامل اقدامه ، لاعطيه المحبة النامية بالالم ، المتسامية بالشوق ، المتزايدة بالحنين ، والمضمخة بالعناق الاول .
لأمنطق لياليه باحلام الايام العلوية ،
واسكب في ايامه رؤى الليالي المقدّسة ،
ثم احكم على ايامه ولياليه بالمماثلة التي لا تتغير . . .

لامنحه سرّةً ليغرّم امامنا ،
وكآبةً ليلتجئ الينا ، . . .

هكذا يليق بنا ان نحكم الانسان الى منتهى الزمان ،
مقيّدين النسمة التي تبدأ بصراخ أمه ،
وتنتهي بنواح اولاده . . . (١

فقد ولد الانسان للعبوديّة ،
وبالعبودية شرفه ومكافأته . (٢

واما الاله الثالث الذي نرى انه يمثل شخصية جبران فهو اقرب الى بطل « المواكب » ونايه وغنائه منه الى آلهة التفكير والمباحثة . ولذلك لا يعير زميليه الّا اليسير من اصغائه ، لا من انتباهه :

فان شابًا في ذلك الوادي
ينشد مكنونات قلبه في اذن الليل . . . (٣
وفي غابة الريحان تلك فتاة ترقص للقمر . . . (٤
ان الشاب يغني في اعماق الوادي (٥ . . .

---

١) آلهة الارض ، ص ٨–٩
٢) آلهة الارض ، ص ١٦
٣) » » ص ٧–٨
٤) » » ص ١١
٥) » » ص ١٣

ان قدمي الراقصة الحسناء قد سكرتا بخمرة الانشاد (١ . . .
ان الفتاة قد وجدت المرنم (٢ . . .
ان روحين سائرتين الى النجوم قد اجتمعتا في الجوّ للحساب (٣ . . .

. . .

هكذا يروي الكاتب حديث الاله الثالث في الثلثين الاولين من الكتاب دون ان يستغرق خطابه في كل مرة بعض الصفحة . ولكنه عندما يصل الى هذا الحدّ ، وقبيل ختام المؤلف ، يطلق عنان البلاغة لالـه « القيثارة » فيُفصح هذا عن « الجوهر الفرد » الذي لم تكن بهرجته لتخبو او تفقد لمعانها في اثر من آثار جبران ، ولا سيما في نهاية تلك المؤلفات وفي مغزاها ، كما هي في اتجاهاتها العامّة . ولا يسعنا ان نعتقد بان جبران يميل الى غير النزعة التي ترى الاله الثالث يلفظ كلمةً بهـا صريحةً واضحـة . لان جبران لم يكن مرآةً تعكس انوار النعرات المكتسبة ، بل كان شعلة ينير من مادّة فؤاده الخاصة . واذا اتى على ذكر جبروت الاله الاول ، او حكمة الاله الثاني وعدله ونظامـه ، فيكون ذلك لازماً له لاظهار افضلية الاله الثالث الخاصّ . ولنستمع الى كلمته النهائية ، مخاطباً الالهين الاول والثاني :

انني اتكلّم ايها الاخوان الناقلان ،
انني اتكلم بالحقيقة ، . . .
اظنرا ، رجلاً وامرأةً ،
لهيباً على لهيب ،
يذوبان وجدًا وهياماً . . .
ان نفسنا التي هي نفس الحياة ، غضبـا وغضي ،
انما تقيم الليلةَ في حلقٍ ملتهب ،
بحلّة جسم فتاةٍ طاهرة بثوب من الامواج الثائرة .
ان صولجانكما لن يغيّر هذه القسمة المعدّة لنا ،
وهو مكما هي الطموح بينه .
لان هذا جميعه سيمحى من الوجود في هوى الرجل والمرأة . (٤

١) آلهة الارض ، ص ١٧ ٢) آلهة الارض ، ص ٢٢
٣) » » ص ٢٦ ٤) آلهة الارض ، ص ٢٩-٣١

واذ يسأل الاله الثاني عن «شأن هذه المحبة بين الرجل والمرأة» يجيبه متذمرًا من الحكمة والمعرفة اللتين قد تحولان بين الانسان وبين رغباته :

أفٍّ من الالم الذي تولّده المعرفة . . .
فيا اخوتي ، آلهة الارض
اننا وان كنا في اعلى الجبل ،
فنحن ما زلنا نسير على الارض —
بواسطة الانسان الراغب في الساعات الذهبية التي في نصيب اخيه الانسان .
فهل تسلب حكمتنا الجمال من عينيه ؟
ام هل تُخضع مقاييسُنا أهواءه فتحملها الى السكون ، او تقودها الى مستوى أهوائنا ؟
ماذا تقدر ان تصنع جيوش افكاركم —
حيث تجتمع المحبة بجيوشها الجرّارة ؟ . . .
نحن بالحقيقة كل ما وراء العالم وكل ما فوقه
ولكن المحبة أبعد من ان تصل اليها اسئتنا —
واسمى من ان تبلغ اليها انشودتنا . (١

اما هذه المحبة فهي كما يحدّدها الاله المذكور لاخوته ، وفي كل جملة من هذا التحديد شعاع يلقي نورًا ساطعًا على نزعات جبران التي حاولنا تحديدها في درس مؤلفاته السابقة . واننا ننقل هذا الخطاب برمّته ، كي لا ننسب الى اقتطاع ما يوافقنا من اقوال الكاتب . قال الاله الثالث :

قد انتصرت المحبة .
سواء أكانت المحبة بياضًا ناصعًا او خضرة زاهية بجانب بحيرة ، او كانت جلالًا وفخارًا في الثياب الرفيعة ، او كانت في بستان حافل بالناس ، او في صحراء لم تطأها قدم الانسان ،
فالمحبة هي ربنا وسلطنا في كل حال .
فهي ليست بالشهوة الزائلة في الجسد .
ولا هي فُتاتُ الرغبة المتساقط من مصارعة الرغبة للذات ،
كلا ، ولا هي بالجسد الحامل سلاحه على الروح .
لان المحبة لا تعرف الثورة .
ولكنها تحجر طريق الاقدار القديمة لتسير الى الغاية المقدسة ،
لترقص وتترنم باناشيد اسرارها في آذان الابدية .
المحبة شباب قد تحطمت قيوده ،
ورجولة قد تحررت من عناء الارض ،

(١ آلهة الارض ، ص ٣٣—٣٤

وانوثة حارة بلهيب مقدس ، مشرقة بنور سماء أجمل من سمائنا .
المحبة ، ضحك بعيد في اعماق الروح .
المحبة ، حملة قديرة تسير بك الى يقظتك .
المحبة ، فجر جديد على الارض ،
ويوم لم تصل اليه لا عينك ولا عيني ،
ولكن المحبة قد وصلت الى قدس اقداسه قلبا الاعظم .
يا أخويّ ، يا أخويّ ،
ان العروس قادمة من قلب الفجر .
لتلاقي عروسها القادم من الغروب .
وسيكون عرسٌ في الوادي ،
ويومٌ اعظم من ان تدوّن حوادثه .(١)

وهذه في ما يلي آخر خطبة للاله الثالث يفوه بها منتصراً على زميليه في تلك المناقشة الطويلة ، وقد جعلها الكاتب مسك الختام ، ملخّصاً بها فكرته . ونحن ننقلها بحرفيتها ايضاً :

انني انفض الآن فاجرّد نفسي من حدود الزمان والمكان ،
وارقص في ذلك الحفل الذي لم تطأه قدما انسان ،
وستتحرك قدما الراقصة مع قدميّ ،
وسأترنم في ذلك الملأ الاعلى ؛
وسيختلج صوتٌ بشريٌ مع صوتي .
سنعبر الى الشفق البعيد ،
فقد نستيقظ في فجر عالم آخر .
ولكن المحبة باقية ،
ولن تمحى آثار أصابعها .
ان الكور المقدس مشتعل بالنار ،
وكل شعلة تصعد منه هي شمس محترقة .
فالاجدر بنا ، والأحكم لصلحتنا —
ان نفتّش عن قرنة صغيرة فننام في الوهيتنا الارضية ،
تاركين امر قيادتنا الى اليوم المقبل ، الى المحبة البشرية الضعيفة .(٢)

فيتضح من كل ما تقدم ان فكرة جبران لم تتغيّر في جوهرها من «الاجنحة المتكسرة» الى «آلهة الارض» .

١) آلهة الارض ، ص ٣٦–٣٧ ٢) آلهة الارض ، ص ٣٩